

فتح طارق ابن زياد بلاد الأندلس

بقلم عبد العظيم على فناوي

المدرس بمدرسة المادى الابتدائية

قضى الأمر — أو كاد — واندثرت حضارة أسسها في الغرب الإسلام على أيدي رجاله الأنجاد ، من اثني عشر قرناً ونصف قرن على قوائم وطيدة من العلم والعرفان ، ورواسي راسخة من الإصلاح والمعمران ، فزها العالم بتلك الحضارة غربيه وشرقيه قرونًا عدة ؛ هذا لأنه مصدرها ، وذاك لأنه مهيئها ، رفع الإسلام في ذلك الدهر أعلام المحبة والوودة ، فكان الدين السمع لا تعرف الموجدة قلوب أبنائه ، والمشرع المذب لا يُحسّل أحد دون رشف مائه ، والشرع الحنيف لا يصيب بغير الحكمة والموعظة من أعدائه ، فدعا أبناء ذلك الدين الفاتح أهل تلك البلاد إلى التعاطف ؛ لا بين المسلمين وبينهم فحسب ، بل بين المسيحيين بمضمهم على بعض ، وبين أولئك وبين اليهود ؛ حقناً للدماء ، وإبقاء على الدماء ، وإخلاداً إلى العمل المجدى ، وتفرغاً لدعوة الحق ، فأزهرت البلاد أيما إزهار ، وازدهرت مقاطعاتها أعظم ازدهار ؛ حتى لقد كانت فتنة الأجيال في الروعة والجمال ، فلها الفنون لا تدانى ، والصناعات لا تحاكي ، والمعارف لا تبارى ، والآثار لا تسامى ؛ على رغم ما كان يُكاد الموكلها ليلاً ونهاراً ، إعلناً وإسراراً ؛ يتقونه بكل تقية ويفتدونه بأى وسيلة لا تبسح حرمة ، ولا تهدر كرامة ، فكهم هادنوا وحالفوا لا حبناً ولكن حفاظاً على دماء غالية أن تهدر ، وكهم حارنوا وناخوا لا ولماً بتأريث البغضاء بل استئصالاً للداء أن يستشرى ؛ حتى أدركها ما يدرك كل كائن وأصابها ما يصيب السامق الصاعد من خفوق وهبوط ، وسقوط وجبوت ، فأخذت تدب فيها عوامل الوهن والفتناء ، وتسرى في أوصالها الأوباء والأدواء ، على قوة مناعتها وحصانة يثتها ، ولكن الأعداء — وقد حشدوا لها أعظم حشد —

وقفوا لها كل مرصد ، وشهروا في وجوه أبطال الفتح ، والعلم ، والسلم كل منعم حتى هوى نجم الرشد والهداية ، وسقط علم المدينة والحضارة ، وطرد العرب منها من القرن الخامس عشر الميلادى إلى أوائل القرن السابع عشر ، وبلغ عدد المطرودين نحو ثلاثة ملايين عربى « كانوا نخبة المسلمين وأعظمهم صناعة وعلم ، فكان ما حدث للمسلمين من الفرج أمام ضعفهم فى إسبانيا ، وما حدث منهم فيها أمام قوتهم وإمكانهم تنصير الفرج بالقوة من الرحمة بالضعيف وحرية الدين حادثة يراها — حتى من لا يريد أن يرى — ، ويستدل بها على مبالغ الفرق بين آداب الأمتين ^(١) » ورحم الله أمير الشعراء أحمد شوقى بك ؛ إذ يقول :

نزل الهلال عن السماء فليتها طويت وعم العالمين ظلام
أزرى به وأزاله عن أوجه قدر يحيط البدر وهو تمام
والآن — وقد أفنى بعض أبناء تلك الأمة العربية بآثارها العريقة بمخلفاتها بعضا ، وخربوا ما عمر لهم العرب ، ونقضوا ما أقاموا من حضارة لم يستطع أن ينال منها كز اللبالي والأيام فنالت منها صواعق المدافع ، ومن آثار سخرت من الدهر ، فسخر عليها وارثوها قذائف الطير — نرى إحياء ذكرها أسى على مدينة ضاعت فى عصر يزعمون أنه عصر المدنية ، وحزننا على حضارة طواها من يدعون بحبي الحضارات ، فى قارة يسمونها حقاً سيدة القارات ، ولا علينا إن ذكرنا ، فإن الله كرى تنفع المؤمنين ، ولا إخالها إلا نافعة مجدية

الفتح

فتحت الأندلس ستم سنة ثنتين وتسعين هجرية فى عهد أمير المؤمنين « الوليد بن عبد الملك » بعد أن استأذنه فى فتحها عامله على إفريقية « موسى ابن نصير » وكان قائداً بطلاً « عاقلاً شجاعاً كريماً تقياً لله تعالى ، ولم يهزم له جيش قط ، وكان والده نصير على جيش معاوية ، ومنزلته لديه مكينة » ، فهو قد ورث القيادة كبراً عن كابر ، فأذن له بعد أن أبقن أنه لا خطر على جيوش المسلمين ؛

(١) دائرة معارف القرن الرابع عشر الهجرى للأستاذ فريد وجدى المجلد الأول ص ٦٦٢

إذ كتب إليه الخليفة ناصحاً : « خضها بالبرايا حتى ترى ، ولا تنرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال » ، فنفذ موسى أمر مولاه ، وأنفذ السرايا ، فلم يصب إحداها سوء ، وحينئذ نثر موسى كنانته ، وعجم أعواد أعوانه ، فلم يجد أشد بأساً ، ولا أصلب عوداً ، ولا أوفى حزماً ، ولا أصدق عزماً ، ولا أندى صوتاً ، ولا أروع بياناً من طارق والى « طنجة » ، ومتى اجتمعت كل هاتيك الصفات في رجل فالتصر أول همه ، فقلده قيادة الجيش ، ولا يذكر المؤرخون الشيء الكثير عن شخصه ، فهم غير متفقين حتى في نسبه ، فيرى بعضهم أنه عربي ينتسب إلى كندة ، ويزعم آخرون أنه إفريقي متعرب ، ولكنى أوتر الرأى الأول ؛ لفصاحته ، وشدة منته ، ولأن موسى في ذكائه وفطنته ما كان ليطمئن في مثل هذا الأمر الجلال إلى غير العربي ، على أنه لا يمتينا نسبه كثيراً ، فقد عا قبل : « أصل الفتى ما قد حصل » وهذا شأن طارق ؛ إن لم يكن ذا حسب ونسب ، ومال ونسب ، فقد كان ذا عزيمة فنية ، وإرادة حديدية ، وبجمل بنا قبل حديث الفتح أن نلم إلامة وجيزة يعمض أسبابه :

أولاً : عرفت الأندلس بالحسن والجمال ، والغنى والثروة ، فتربتها خصبة ، وحدائقها نضرة ؛ تجري من تحتها الأنهار ، وتبجى منها الأثمار والأزهار ، وهى وفيرة الغنى بالمعادن ، ففيها الذهب والفضة والشبه والنحاس ؛ وبها النفائس الغالية ، والجواهر النادرة ، وهذا قل من أكثر مما وصفت به في النثر والشعر قال أبو عبيد البكرى :

« الأندلس شامية في طيها وهوائها ، يمانية في اعتدالها واستوائها ، هندية في عطرها وذكائها ، أهوازية في عظم جبايتها ، صينية في جواهر معادنها ، عدنية في منافع سواحلها ، فيها آثار عظيمة لليونانيين أهل الحكمة ، وحاملي الفلسفة » وقال الوزير لسان الدين ابن الخطيب ^(١) :

« خص الله بلاد الأندلس من الريح وغدق السقيا ، ولذاذة الأقوات ، وفراة الحيوان ، ودزور الفواكه ، وكثرة المياه ، وبحر العمران ، وجودة اللباس ،

وشرف الآنية ، وكثرة السلاح ، وصحة الهواء ، وايضا ألوان الإنسان ، ونيل الأذهان ، وفنون الصنائع ، وشهامة الطباع ، ونفوذ الإدراك ، واحتكام المدن والاعتبار بما حرمه الكثير من الأقطار مما سواها ؛ وقال غيرها :

«إنها جزيرة قد أهدت بها البحار ، فأكثر فيها الخصب والمهارة ، فتي سافرت فيها من مدينة إلى مدينة ، لا تكاد تنقطع من المهارة ، ما بين قرى ومياه ومزارع ، والصحارى فيها معدومة ، وبما اختصت به أن قراها غاية من الجمال ؛ لتصنع أهلها في أوضاعها وتبييضها لثلاثين عنها الميون ، فهي كما قيل :

لاحت قراها بين خضرة أيكها كالدر بين زبرجدة مكنون
وما قاله الشعراء فيها أنصع وأبدع ، فهم ليسوا في حاجة إلى استيحاء الخيال أو تخيل الجمال ، فحسبهم أن ينظروا ليشعروا ، ويتأملوا ليرتلوا ، ويسمعوا شدة البلايل ، ليقوموا على قيثارة المفاعل ؛ فمن ذلك قول ابن سفر المريني :

في أرض أندلس تلتذ نماء ولا يفارق فيها القلب سراء
وليس في غيرها بالعيش منتفع ولا تقوم بحق الأنس صباء
وأن يمدل عن أرض تحض بها على المدامة أمواه وأفياء ؟
وكيف لا يبهج الأبصار رؤيتها وكل روض بها في الوشي صنعاء ؟
أنهارها فضة ، والسك تربتها ، والخز روضتها ، والدر حصباء
وللهواء بها لطف يرق به من لا يرق وتبدو منه أهواء
ليس النسيم الذي يهفو بها سحرا ولا انتشار لآلى الطلل أنداء
وإنما أرج الند استثار بها في ماء ورد فطابت منه أرجاء
وأن يبلغ منها ما أصنفه ؟ وكيف يحوى الذي حازته إحصاء ؟

وحسبنا هذا ، فما قيل في وصفها كثير ، من نظم ونثر
ثانياً : رغبة الخلفاء والأمراء في نشر الاسلام ، ورفع ألويته فوق ربوع
العالم ؛ حتى يسود المعمورة نظامه ، وتشمل الكون تعاليمه ، ويدن لذلك الدين
المساح الشرق والغرب

ثالثاً : اضطراب الأمر بين أمرائها ، وتفكك عناصرها ، والإحسان تأكل

مدور كبرائها، والاحقاد تنشى بصائر زعمائها؛ فهذا بيكي ملكا سلب، وذلك يندب عرضاً انتك، وثالث يشكو ظلماً عم، مما جعل كل فرد في نفسه شيعة، وكلا يسعى لأخيه بالدس والوقية، وهذا إلى ما تسامعوا به عن عدالة العرب في حكومتهم، وتأمين الناس على دينهم وثروتهم، ومساواتهم في الحقوق بين خاصتهم وعامتهم، حتى جعلوا العدل أساس ملكهم، وصيروا التآلف والإخاء شعار مجدهم تلك الأسباب وسواها هي التي حلت موسى بن نصير إلى أن يستمع إلى مشورة يليان أمير «سبته» في الفتح؛ حتى يخلو له الجو من لدريق مليكة عدوه اللدود؛ لسلبه عرض ابنته كرهاً، «وقد كان من سير أكابر الأعاجم بالأندلس وقوادهم أن يبعثوا أولادهم الذين يريدون منفعتهم، والتنويه بهم إلى بلاط الملك الأكبر بطليطلة؛ ليصيروا في خدمته، ويتأدبوا بأدبه، وينالوا من كرامته؛ حتى إذا بلغوا، أنكح بعضهم بعضاً، استئلافاً لأبائهم، وحمل صدقاتهم، وتولى تجهيز إناثهم إلى أزواجهن، فاتفق أن فعل ذلك يليان عامل لدريق على «سبته» وكانت يومئذ في يد صاحب الأندلس، وأهلها على النصرانية، ركب الطريقة بابنة له بارعة الجمال^(١) تكرم عليه، فلما صارت عند لدريق وقعت عينه عليها فأعجبته، وأحبها حباً شديداً، ولم يملك نفسه حتى استكرهها وافتضاها، فاحتالت حتى أعلمت أباه بذلك سرّاً بمكاتبة خفية، فأحفظه شأنها جداً، واشتدت حميته وقال: ودين المسيح لأزبلن ملكه وسلطانه، ولا تحفرن تحت قدميه، فكان امتعاضه من فاحشة ابنته هو السبب في فتح الأندلس بالذي سبق من قدر الله تعالى^(٢)»

جهز موسى جيشاً عدته سبعة آلاف جله إفريقيون وقلة عرب، ومن «طنجة» اخترق به طارق المضيق على أربع سفن ليوليان، وكان لطارق العين الساهرة، واليد الضاربة، والرأي الحازم، والعزم الصارم؛ ليثل عرش سالب شرفه ومقوض مجده لدريق، فما زالت السفن تنقل الجيش حتى توافى بالجبل المسمى الآن «جبل طارق» ومنه سار طارق فاتحاً حتى فتح فرضة الأندلس

(١) كانت تدعى «فلورندا»

(٢) ورد بالجزء الثاني من النسخ صفحة نمرة ١٧٥٠ (الطبعة الأخيرة)

« الجزيرة الخضراء » وبلغ لتدريب الخبر فوق عليه وقع الصواعق ، وسار من « قرطبة » في جيش جرار يتراوح بين السبعين ألفاً ومائة ألف ، فلم تضطرب لطارق سكينته ، ولا ترعزت له عزيمته ، ولكنه أخذ بالحزم ، فبعث إلى موسى يسأله مدداً ، فأمدّه بخمسة آلاف على سفن أعدها ، ولما تكامل الجيش أحرق طارق السفن ؛ حتى يقطع على الجيش أمل العودة إلى بلادهم إن لم يتح لهم النصر ، وقام في الجيش خطيباً ، فخطبهم خطبته العاصفة القاصفة التي تجمل من المنتخب الرعيد الأسد الصنديد ، كل كلمة من كلماتها صواعق وحمم ، وكل فقرة من فقراتها سمير يلهب ، ويكفيها وصفاً أنها عصقت بدولة ، وقوضت دعائم مملكة ، وثقلت عرشاً مؤثلاً ، وقد اشتملت على سياسة بارعة ، وحكمة رائعة ، فنأهم وأملهم ، ووعدهم ورغبهم ، فمن هذا الذي لا يرغب أن يكون الملوك سيّداً ، ولأبنائهم ربا ولبنائهم مولى ، فاسمع إليه يقول لفتيان يجرى في عروقهم دم حار فوار : « واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً ؛ استمتعتم بالأرفه الأله طويلاً ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي ، فما حظكم فيه أوفر من حظي ، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات في الدر والمرجان ، والحلل المنسوجة بالمعيقان ، المقصورات في قصور الملوك ذوى التجان ، وقد انتخبكم الوليد ابن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال غزباناً ، ورضيكم للملك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً ؛ ثقة منه بارتياحكم للطمان ، واستماحكم لمجالد الأبطال الفرسان » ومما تتحدث به كتب التاريخ : « أن طارقاً رأى في منامه النبي صل الله عليه وسلم وحوله المهاجرون والأنصار ، قد تقلدوا السيوف ، وتنكبوا القسي ، فقال له : يا طارق ، تقدم لشأنك ؛ ونظر إليه وإلى أصحابه قد دخلوا الأندلس قدامه . فاستيقظ فرحاً منتشياً بعلام الفخر عطفه ، وبشر أصحابه . تلك رؤياه قد تكون حقيقة ؛ فالرجل مبجل الخاطر مضطرب البال ، فليس غريباً أن يرى في نومه ما يشغله في يقظته ، وقد تكون خيالية دفعه إلى اختراعها رغبتة في إثارة جنته ، وبعث العزيمة في نفوسهم والحمية في قلوبهم ، فهذا رسول الله يتقدمهم ؛ وليس هذا الخيال غريباً على من يحرق السفن حتى لا يكون في العودة أمل

وسار بعد ذلك فأصاب عجوزاً أندلسية ، فقالت له : إنه كان لها زوج قالم بالحدثنان ، فكان يחדثهم عن أمير يدخل بلادهم فاتحاً ، ويصفه بأنه ضخم الهامة ، وأنت كذلك ، وبأن في كتفه اليسرى شامة عليها شعر ، فإن كانت بك هذه العلامة فأنت هو . فكشف طارق ثوبه فإذا بالشامة في كتفه على ما ذكرته ، فاستبشر بذلك هو ومن معه . ورأينا في هذه القصة رأينا في حديث الرؤيا ، قد تكون خيالية ، فأوحى إلى المعجوز بما تقول ليقوى عزائم جنوده بأكثر من برهان ؛ وكأني به يقول لصحابته : هاتان آيتان باهرتان ، وعلامتان واضحتان يثبتان ؛ فلا تحشوا عديداً أكثر ، ولا عُدداً وفرت ، فلنا النصر المؤزر ، حدثنا به النبي رؤيا ، وحدثنا به العلم بشري

وقبل التقاء الجيوش أرسل لدرريق فارساً موسوماً بالنجدة والبأس ، معروفاً بالشهامة والمنة ليحرز عدد جيش طارق ، فرآه جنود المسلمين ، فتوابعوا عليه يريدون الفتك به ، ولكنه نجاه جواده ، إذ سابق به الريح ، ووصل إلى سيده يلهث وهو يقول : « خذ على نفسك ، قد جاءك من لا يريد إلا الموت ، أو إصابة ما تحت قدميك ، قد أحرقوا مراكبهم إياساً لأنفسهم من التلصق بها ، وصفوا في السهل موطنين أنفسهم على الثبات ، إذ ليس لهم في أرضنا مهرب » . فاشتد هلع لدرريق ، وعظم جزعه وفزعه ، وخارت قواه المعنوية ، على حين تضاعفت قوة جيش طارق المعنوية بما قدمنا ، وناهيك بما لها من أثر ؛ إنها تقتحم الماقل والحصون ، وتذكر القلاع والسدود ، ولها ما ليس للكتائب والقبائل من نصر مبین

وفي أواخر رمضان سنة ثنتين وتسعين التقى الجمعان بعد أن آمن طارق أولاد غيطشة الذي اعتدى لدرريق على ملكه ، فسلمه من وراثته الشرعيين ، ومناهم طارق برد ضياعهم إليهم ، وكانت ثلاثة آلاف ضيعة ، وبرز لدرريق في جنود غفيرة وعدد وفيرة ، وقلوب منخوبة ، ونفوس مقهورة ؛ وطارق في جيش قليلة عدته ضئيلة عدته ، ولكنه ذو قلوب جياشة ، ونفوس وثابة ، إن لقيت ربها فإلى الجنة وإن ظفرت بالحياة فلها الفخر والمنمة ، يحوط لدرريق ملوكه وجوعه وكهنته

وبطارقته ، وتحقق فوق رأسه بنوده وألويته ، قد ركب فرساً أشهب عليه سرج من ذهب كال بالياقوت والبرجد ، وعلى رأسه ظلة من الديباج إن وقته وهج الشمس ؛ فلن تقيه لهب الحرب ، وفي قديمه خفان من الذهب المصع أما طارق وجنوده فبرزوا عليهم اللأم والزرذ ، وفوق رؤوسهم العمام البيض وبأيديهم القسي ، قد تقلدوا السيوف واعتقلوا الرماح

التقى الجمعان قبيل شدونة ، وحى وطيس الحرب ، واشتد أوارها ، واشتعلت نارها ، وإذ رأى طارق لتدريق هجم عليه هجمة الأسد المصور ، وانقض أصحابه معه انقضاض البزاة والنسور ، وأعملوا السيوف ؛ حتى تحاذلت عنه ميمته وميسرته ، وكان قائداها ابني غيطشة ، وتفرق من حوله ، وبقي في شزيمة لا تصد عنه عادى المنون ، وتخلص إليه طارق ، فضربه ضربة أطاحت رأسه ، وأطاحت مع رأسه عرشه ، فلما رأى المخلصون له من جيشه مصرعه ، ناروا واستبسلاوا ، فجنت النفوس ، وتطارت الرؤوس ، وتجلدوا على ذلك أياماً انتهت بالفتح المكين والنصر المبين ، وتابع طارق الفتح ، والمدائن تفتح له صدورها بعد تمنع ، وتسلم له عذارها بعد تأب قاصد وتدل ؛ حتى وصل إلى قرطبة فدخل فيها ، واستولى على نفائس لا يبلغها الوصف وذخائر لا يقدرها الحصر ، ومنها بعث البعث لفتح المدن والحواضر : كالكفة وغرناطة ، وسار هو إلى طليطلة ، فلم يكن يقف في طريق تلك البعث إلا بغاث الطير ، لا تلبث أن ترى الحمام فتطير

ذلك حديث الفتح ، لا يقلل من أهميته أو يحد من عظمته أن نرى تلك الدولة قد دالت أيامها وعادت سيرتها الأولى ، وذلكم طارق بن زياد البطل الخالد في القلوب وحسبه بحب القلوب خلداً ، الماجد في التاريخ ، وأعظم بحديث التاريخ مجدداً ، الحميد الأيثار ، ومن يستحق دون المؤثر حمداً ، القوى بسياسته وفتحه ، ومن أعظم من السياسي الفاح أيدا . ذلكم طارق يستقبل أميره الناقم عليه بعد أن كلفه جليلاً فأنجزه ، وأعد له خطير من الأمر فأنفذه ، وأعطاه لواء ضميماً فعززه ، يستقبله لا في صلف المتفخر أو زهو المنتصر ، بل في تواضع وهو المستلم الدارع ، وفي خضوع وهو قائد الجيش اللجب وذو الفوز الساطع ، وفي قناعة ولو أراد لكان الطامح

الطامع ، وكانني بآبن نصير خشي أن يزدهي طارقاً نصره ، فيشق عصا الطاعة ،
ولكن طارقاً كان الجندى الذليل والقائد العظيم ، وما أشبه موقفه هذا بموقف
قائد المسلمين الأول خالد بن الوليد حينما عزله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي
الله عنهما عن إمارة الجيش فرجع إلى صفوف الجند :

يقوده حبشى في عمامته ولا تحرك مخزوم عواليها

بل كان الجندى الطيع لرئيسه الذى كان من هنية مرءوسا ، وصار تابماً
وكان من قبل متبوعاً ، وعاد مأموراً ومن لحظة كان آمراً ، كذلك كان طارق
الجندى المجهول إذ أصبح لموسى الجندى الشديد الطاعة ، وصرنا لا نعلم من أمره
بعد أن تم الفتح على يديه ويدي موسى بن نصير إلا أنه عاد إلى الشام ، وبهامات ،
ونحنم كلمتنا تلك بأبيات من شعره إن فاتها حسن المطلع فحسبها نبل المتبع ، وإن
تعدتها روعة القريض فلها بقائلها المجد العريض .

ركبنا سفينا بالمحاز مقيرا عسى أن يكون الله منا قد اشترى
نفوساً وأموالاً وأهلاً بمنجة إذا ما اشتبهنا الشيء فيها تيسرا
ولسنا نبالي كيف سالت نفوسنا إذا نحن أدر كنا الذى كان أجدرنا
عبد العظيم على قنارى